رأي القدس

استراتيجية جديدة لتنظيم «القاعدة»

■ بعد خمس سنوات من اعلان الرئيس الامريكي جورج بوش الحرب على الارهاب، وارسال قواته الى افغانستان لتدمير تنظيم القاعدة، وانهاء حكم حركة طالبان، ما زال التنظيم الاصولي يحتل عناوين الصحف، ويتصدر نشرات الاخبار في معظم محطات التلفزة العالمية.

فلا يمر اسبوع دون ظهور تقرير يؤكد ان هذا التنظيم في نمو مستمر، ويزداد خطورة يوما بعد يوم، وان الاحتلال الامريكي للعراق قد سهل مهمته في تنظيم اعداد كبيرة من الشباب المسلم الغاضب، واقامة قواعد تدريب لتأهيله لهجمات دموية ضد اهداف غربية بشكل عام وامريكية بشكل خاص.

ولعل الشريط الصوتي الذي بثته مواقع اسلامية اصولية متشددة للسيد ابو حمزة المهاجر، زعيم التنظيم في العراق، هو التطور الابرز لما تضمنه من معلومات جديدة، تعكس استراتيجية التنظيم في الاسابيع او الاشهر المقبلة.

فهذه هي المرة الاولى التي يتحدث فيها المهاجر بصوته منذ توليه هذه المهمة بعد اغتيال ابو مصعب الزرقاوي على ايدي القوات الامريكية في غارة مفاجئة قبل بضعة اشهر، وهذا الظهور الصوتي يعني ان قواعد التنظيم في العراق باتت اكثر صلابة وترسخا، وان زعيمه بات اكثر ثقة.

ويمكن استقراء العديد من الحقائق والمعلومات الجديدة عن هذا التنظيم من خلال قراءة معمقة للشريط الصوتي لزعيمه في العراق، نوجزها في النقاط التالية:

● اولا: كشف السيد المهاجر ان اربعة آلاف مقاتل من انصار القاعدة الاجانب قد سقطوا في العراق منذ غزوه واحتلاله، وهذا يعني ان هناك ثلاثة اضعاف هذا الرقم على الاقل ما زالوا احياء، ينفذون عمليات هجومية ضد قوات الاحتلال والمتعاونين معه. اما عدد العراقيين فقد يكون اكثر من ذلك بكثير.

● ثانيا: طالب زعيم التنظيم في العراق انصاره بخطف اجانب لاستخدامهم كورقة مساومة للافراج عن الشيخ عمر عبد الرحمن الزعيم الروحي للتنظيمات الاصولية المصرية المتطرفة، والمعتقل حاليا في احد السجون الامريكية، الامر الذي يمكن تفسيره على انه اعادة التأكيد على مرجعية الشيخ عبد الرحمن، وترجيح هوية ابو حمزة المهاجر المصرية، وتأكيد انتمائه للجماعات المصرية المسلحة، مثل الجهاد الاسلامي والجماعة الاسلامية.

● ثالثا: دعوة السيد المهاجر للكفاءات العلمية العراقية في مجالات الذرة والاسلحة البيولوجية والكيماوية للانضمام الى التنظيم وتوظيف خبراتها ضد الامريكيين والمتعاملين معهم، تكشف عن نواياه في السعي للحصول على اسلحة دمار شامل بغية استخدامها ضد القوات الامريكية في العراق او خارجه.

● رابعا: عرض المصالحة والعفو الذي قدمه الى شيوخ العشائر الذين تعاونوا مع الاحتلال شريطة توبتهم ينطوي على توجه لترميم الجسور مع هؤلاء، مثلما يعكس تزايد الضغوط على التنظيم واعضائه من قبل هؤلاء، خاصة بعد العمليات التي نفذها انصار للقاعدة ضد منتسبي الحرس الوطني والشرطة في منطقة الرمادي، وادت الى مقتل العشرات، وهي العمليات التي وترت العلاقة بين الجانبين، وادت الى حرب غير معلنة كانت نتيجتها خروج الكثير من اعضاء القاعدة من المنطقة.

هذا الشريط علاوة على كونه يتضمن استراتيجية مرعبة للقاعدة وزعيمها في العراق، فانه يؤكد انها تزداد قوة وخطورة، مثلما يؤكد ايضا ان حرب الرئيس بوش ضد الارهاب اعطت نتائج عكسية تماما.

النبوءات حول بلقنة الشرق الأوسط: ماذا يتفكك؟ مَن يفكك؟

صبحي حديدي *

■ إقرأوا هذا النسق في التفكير، غير الجديد في الجوهر، ولكن ذاك الذي قد يصبح عيار ومعيار التخطيط الرسمي الأمريكي لشؤون الشرق الأوسط إجمالاً، والمشرق التاريخي تحديداً، أو شرق المتوسط دون سواه: «البلدان الواقعة بين البحر الأبيض المتوسط وبلاد فارس لم يكن لها إلا القليل فقط من المعنى قبل القرن العشرين. فلسطين ولبنان وسورية والعراق لم تكن سوى تعبيرات جغرافية غامضة، وأمّا الاردن فلم يكن في الوارد أصلاً. وحين نزيل الخطوط الرسمية على الخريطة، فإننا سنجد رسماً عشوائياً بأصابع اليد لتكتلات سكانية سنّية وشيعية تتناقض مع الحدود الوطنية (...) وإذا كان في الشرق الأوسط جزء يتشابه على نحو مبهم مع يوغوسلافيا السابقة، فإنه المنطقة من لبنان حتى إيران، حيث نواجه انحلال نظام الدولة الذي ظلّ، طيلة عقود، الحلّ الكفيل باضمحلال الإمبراطورية العثمانية».

هذا اقتباس من مقالة بعنوان «تحريك التاريخ»، للكاتب والمفكر السياسي الأمريكي روبرت د. كابلان، نُشرت قبل أيام معدودات في الطبعة الأوروبية من صحيفة «وول ستريت جورنال» الأمريكية، يستهلها بالزعم أنّ أيّ زعيم منذ نابليون بونابرت لم يعكّر صفو الشرق الأوسط كما فعل ويفعل الرئيس الأمريكي جورج بوش (الابن، طبعاً)، ويختمها بتشجيع الأخير على المزيد من تهشيم النظام بعد ـ العثماني هذا، حيث لن تكون العواقب أشدّ كارثية مما جرى بعد تقويض الإمبراطورية السوفييتية. وليس دون فضيلة المصارحة، وإنْ تجرّدت من كلّ قيمة أخلاقية أو حتى نفاقية، أنّ كابلان يهتك المسكوت عنه ولا يتردد في بلوغ الخلاصة التالية، بالحرف: «بدل الديمقراطية، خير لإدارة بوش أن تستقرّ على نوع من إدارة الحكم أياً كانت، ولنفكّر في خرائط العصور الوسطى حيث لم تكن هنالك حدود واضحة، بل مجرّد مناطق غير متمايزة في كردستان وبلاد الرافدين وسواهما، خاضعة للتأثير الفارسي».

وللإيضاح، أو ربما لمزيد من تفصيل مشهد يبدو بحدّ ذاته مكشوفاً مفصّلاً، يتوقف كابلان عند معيار انهيار البلقان التاريخي الذي تفكك، أو بالأحرى تَبَلْقَن، على مراحل عدّة لا بدّ أن تُختتم بانحلال «دويلات الباحة الداخلية» مثل سورية والعراق، أو كما يعبّر الرجل: سورية الكبرى وبلاد الرافدين. كانت مخاطر العراق ما قبل الغزو الأمريكي تتمثل في استمرار دكتاتور مثل صدّام حسين على رأس «مجموعة رعاع من السنّة»، وتخيّلوا كيف ستكون الحال مع ارتفاع أسعار النفط وتحوّل النظام إلى قوّة إقليمية غنيّة قوية. سورية، من جانبها، سوف تراكم المزيد من الانقسامات الطائفية والإثنية، وستتفاقم أزمات نظامها الدكتاتوري، ويتسع نطاق الصحوة الدينية في صفوف أغلبيتها السنية، وستنقلب هذه وسواها إلى عوامل شبه مستقرّة، معيقة لأيّ إصلاح ديمقراطي. ما الحلّ، إذاً؟ الغزو العسكري في العراق (كما فعلت إدارة بوش)، وأمّا سورية فإنّ كابلان يسكت عن الحلّ النظير العسكري، وكأنه استطراداً يستبطن التفكيك... إلى خرائط العصور الوسطى!

وقبيل انقضاء القرن العشرين، وربما من اجل إلقاء تحية وداع نبوئية على عقده الأخير، كتب كابلان دراسة مماثلة عن سلام الشرق الأوسط، نشرتها مجلة Atlantic Monthly الأمريكية التي اعتادت احتضان آراء كابلان، سيّما تلك التي تبدو للوهلة الأولى بالغة الإشكالية أو حتى قائمة على غلوّ شديد في التحليل والاستنتاج. وكما هي حال مزاجه العامّ وروحية كتاباته ودراساته، الراهنة منها وتلك التي كتبها بعد هزّة 9/11 بصفة خاصة، تستند الدراسة المبكرة إلى سلسلة نبوءات واسعة الخيال متحرّرة بالمطلق من أي وازع في استخدام حقّ التكهن السياسي. وهو اليوم يعيد إنتاج خطوطها الرئيسية دون تغيير يُذكر، وكأنّ 16 سنة من عمر المنطقة والعالم ـ بعد 9/11 وغزو أفغانستان والعراق، وفوز حركة «حماس» في أوّل انتخابات ديمقراطية فلسطينية حقّة، وحرب إسرائيل الأخيرة على لبنان... ـ لم تكذّب أياً من تلك النبوءات.

وقبل استعادة خطوط تلك الدراسة، التي تبدو وكأنها تفقز اليوم من غيهب الماضي لكي تتماهى مع وقائع الحاضر، نشير إلى أنّ كابلان ليس متأملاً عادياً للمشهد الشرق ـ أوسطي، وليس مجرّد كاتب يلقي الخلاصات على عواهنها. لقد مارس ويمارس تأثيراً شبه سحري على كثير من صانعي القرار وراسمي السياسات هنا وهناك في الولايات المتحدة، داخل الإدارة وخارجها، طيلة عقود. ومنذ العام 1993، حين تنبأ باقتراب أوان تفكك سورية جرّاء اشتداد أزمة الهوية، وهو يتربّع على عرش تأويل العالم الجديد بوصفه واحداً من أكثر الكتّاب جسارة على التفكير في المحظور، وحماساً لصياغة سيناريوهات مستقبلية حول مسير الأرض نحو الكوارث.

وفي ذلك العام كان قد نشر كتابه «أشباح البلقان» مع سقوط القذائف الأولى في حرب البوسنة، فتلقفته الدوائر المختصة في البيت الأبيض واعتمدته كوثيقة تحليلية للماضي والحاضر والمستقبل. والكاتبة إليزابيث درو، في كتابها «على الحافة»، كادت أن تقسم بأغلظ الأيمان أن تخطيطات كابلان هي التي ردعت (نعم: ردعت)! إدارة الرئيس الأمريكي السابق بيل كلينتون عن تطبيق سيناريوهات عسكرية أشدّ بأساً في يوغوسلافيا العتيقة. بعد عام واحد نشر دراسة كارثية أخرى، حول أفريقيا هذه المرة، بعنوان «الفوضى القادمة»، اعتبر فيها أن القارة السوداء لم تعد بكراً ولكنها ساحرة شيطانية حبلى بآلاف الأهوال المرشحة للسفر هنا وهناك في أصقاع العالم المتمدن وغير المتمدن. ومرّة أخرى تلقفت الإدارة خطّ تفكير الرجل، بل وذهب تيموثي ورث (مساعد الرئيس للشؤون الدولية، آنذاك) إلى حدّ وصف المقال بـ«الإنذار الهام»، وأخذ يقتبس فقرات كاملة منه كلما توجّب على الإدارة أن تواجه قضية أفريقية.

وفي العودة إلى نبوءات أواخر القرن حول الشرق الأوسط، هنا خلاصة مكثفة للسيناريو الذي تكهن به الرجل، مع الإشارة إلى أن معظم ما سيرد من «مصطلحات» تجري على لسان كابلان نفسه، ولسنا بالتالي في حاجة إلى وضعها بين مزدوجات للتدليل على عجائبيتها:

1 ـ توقيع اتفاقية سلام سورية ـ إسرائيلية سوف يعني أنّ الشطر العربي ـ الإسرائيلي من صراعات الحرب الباردة سيكون قد انطوى، وستسود موجات تفاؤل حول الشرق الأوسط الجديد: مرتع القبلات والعناقات والمصافحات التاريخية حسب إدارة كلينتون، ومدار الرخاء الأقصى حسب شمعون بيريس. بعدها يحين أوان النظرية الداروينية في الإنتخاب الطبيعي وبقاء الأقوى في الهيمنة على الغاب.

2 ـ سوف ينقرض الاستقرار الخادع الذي أشاعه تدخّل القوى العظمى في المنطقة، وسوف تندثر بساطة قطبي الصراع بين مجموعتين إثنيتين هما العرب واليهود (ولاحظوا كيف تنقلب هوية وطنية إلى «إثنية»، وكيف تفعل الشيء ذاته هوية دينية صرفة). هذا من جهة، وأما من جهة ثانية فإن الإنفجار الديمغرافي العربي سوف يمارس أعنف الضغوط على الهدوء الخادع، ولسوف تشهد المجتمعات العربية والاسلامية تغييرات جذرية لم يسبق لها مثيل منذ خمسة قرون.

3 ـ صحيح أن السلام سوف يجلب (بالرضى أو بالإكراه) المشاريع والاستثمارات المشتركة، وتقاسم الثروات والمياه، والنموّ الاقتصادي، وكلّ ما يحلم به شمعون بيريس. ولكن ذلك كله لن يحرّر الجماهير العربية الغفيرة من وطأة الإنفجار الديمغرافي المقترن بتدهور الحياة السياسية والمؤسسات المدنية، وستحدث العجزة المزدوجة التالية:

أ ـ الفئات الاجتماعية العربية التي تحتل مراتب عليا في السلّم الطبقي سوف تقترب أكثر فأكثر من المواطن الإسرائيلي النموذجي المتوسط (الذي يتمتع برفاه اقتصادي متقدم على جيرانه)، وسيكون الإقتراب متباين المستويات، وسيشمل الميول السيكولوجية اليومية والثقافية والحضارية؛

ب ـ الفئات العربية الأفقر سوف تنأى أكثر فأكثر عن التحالف أعلاه، ولن تدور خطوط الإنقسام بين إسرائيل وهذا أو ذاك من الأنظمة العربية، بل بين الجماهير العربية الفقيرة في قطب أوّل، وإسرائيل مضافاً إليها الأنظمة العربية كافة في قطب ثان مقابل.

4 ـ ها هنا يكرّر التاريخ أمثولة البلقان والبلقنة، على نحو معكوس كما هي حال التاريخ حين يكرّر نفسه: مسيحيو الشرق (وكابلان يخصّ بالذكر مسيحيي مصر وسورية والضفة الغربية، ولا ندري السبب في تجاهله مسيحيي لبنان والعراق والأردن على سبيل المثال)، سوف يلاقون مصير ذاته الذي لاقاه مسلمو البلقان. وها هنا تبدأ الأحلام الإثنية القديمة في الاستيقاظ من سبات طويل، ثم تنقلب إلى مشاريع دويلات لا تفلح في تهدئة جنونها سوى نيران الحرب وأنهار الدماء. سورية ستنقسم إلى دويلات، وستلحق بها مصر، ثم تركيا وإيران. وعند هذه النقطة من السيناريو ينسى كابلان المعيار الطبقي الذي اتكأ عليه أصلاً، وينساق على هواه في تحويل الطبقة إلى حلم إثني، والإنتماء الديني إلى مشروع قومي.

5 ـ وكلما اتسعت الصدوع والإنكسارات، زاد ضغط الاقتصاد على المجتمع والسياسة، وزاد إحساس الفقراء بالهوّة الفاغرة، وتبلور المزيد من الإنقسام العمودي العميق. ولا يظنّ أحد أن الرجل يستثني دولة مثل المملكة العربية السعودية من هذا الصراع الطبقي (والمرء مضطر لاستخدام التعبير، بإيحاءات ماركسية أو بأخرى سوسيولوجية محضة). ومثل مصر وسورية ودول المغرب العربي، شهدت دول الخليج الكثير من التطورات الديموغرافية والقليل القليل من التطورات السياسية والمدنية، فلماذا استثناؤها؟

6 ـ وإذ تتواصل فصول هذا السيناريو، فإن يهود اسرائيل سوف يلعبون الدور ذاته الذي لعبه أجدادهم في الشرق الأوسط زمن القرون الوسطى، أي دور الوسطاء الاقتصاديين بين قبائل وأفخاذ وزُمَر تتصارع وتتنافس دونما استقرار حول معطيات سلطة واحدة، أو في مركز عمراني محدد متجانس. ويقول كابلان إن المجتمع الإسرائيلي يتبرجز أكثر فأكثر، في حين أن القشرة العليا من ضباط الجيش تتديّن أكثر فأكثر.

فما الذي يستنتجه العرّاف من هذه الملاحظة: خير على خير، كما يقول، لأن انتقال المجتمع الاسرائيلي خطوة متقدمة على طريق الموقف المادي من الحياة، وانتقال الجيش خطوة على طريق الموقف الروحي أمر ليس في صالح إسرائيل وحدها، بل في صالح المنطقة بأسرها. ذلك لأن هكذا دولة ستكون الوحيدة المدججة بأسلحة المادة والروح معاً، وسط عماء منطقة يسميها ببساطة «الشرق الأوسط الذي يدخل القرن الواحد والعشرين وهو ما يزال مقيماً على تخوم القرون الوسطى».

مَن يجرؤ اليوم على التوقيع أسفل تلك النبوءات، بعد أن تكفلت الوقائع بتفكيكها واحدة تلو الأخرى، بدل أن تتفكك سورية وتركيا ومصر وإيران، أو تُعقد اتفاقية سلام سورية ـ إسرائيلية، أو يقترب المواطن الإسرائيلي من جاره العربي، أو يكرّر التاريخ أمثولات البلقان في بيروت ودمشق وبغداد وطهران؟ الأرجح أنّ أحداً لن يجرؤ اليوم على اعتناق هذه النبوءات، باستثناء مبتدعها وأوّل المتنبّئين بوقوعها: روبرت د. كابلان، وحده... أو يكاد! ليس بلا دلالة، مأساوية تماماً مع ذلك، أنّ أبرز العلائم على التفكك والتفكيك إنما تتبدى في العراق، وليس بسبب استيقاظ نزوعات مذهبية أو إثنية عند «رعاع شيعة» أو «رعاع سنّة» أو «رعاع كرد»، أو... بل تحديداً بسبب ما تغنّى به كابلان مراراً وتكراراً، أي الغزو الخارجي والاحتلال العسكري الأمريكي، حيث تستيقظ أحطّ أخلاقيات العصور الوسطى، على الأرض كما في الخريطة!

* كاتب وباحث سوري يقيم في باريس

العلقمية الجديدة تجتاح بغداد للاجهاز عليها

هارون محمد *

■ إذا كان العلقمي القديم وزير الخليفة العباسي المستعصم بالله قد تواطأ مع هولاكو، وفتح أبواب بغداد لجيوشه المتوحشة في كانون الثاني (يناير) 1258، لتقوم بأبشع جريمة في ذلك الزمان، راح ضحيتها قرابة مليون انسان عراقي، ورافقتها عمليات محو لحضارة وثقافة وابداع وبناء تراكمت عبر خمسة قرون، فإن العلقمي الجديد الذي يتقمص شخصيته عبدالعزيز طباطبائي الحكيم لا يخفي نواياه الشريرة بتدمير بغداد من خلال مشروع ذي شقين: الأول تقزيم سيدة المدن العربية والاسلامية وعنوان المجد العراقي بتحويلها الى فيدرالية شيعية وسنية مشتركة لوحدها، وهذا يعني تقسيم بغداد على طريقة برلين الغربية ونظيرتها الشرقية في سنوات الحرب الباردة، ولكن بدون سور او جدار ما دام نهر دجلة قائماً يكون هو العازل بين الشطرين، بعد تدمير الجسور الاثني عشر الحالية التي تربط الكرخ بالرصافة.

والشق الثاني من المؤامرة العلقمية الجديدة في حالة عدم نجاح فدرلة بغداد هي اضعافها وتهميشها وشطب ثقلها كعاصمة ومركز لصالح أقاليم المناطق والمحافظات، بحيث تذوي بغداد شيئا فشيئا وتتحول الى مجرد عاصمة شبحية بالاسم فقط، لا دور لها، في الوقت الذي وضعت نصوص في الدستور المشوه، قضت بسحب صلاحيات المركز كعاصمة للدولة العراقية وتوزيعها على المحافظات والأقاليم.

وعندما يقول عبدالعزيز ان الشيعة في العراق ـ هكذا يزعم ـ حصلوا على مكاسب وانجازات خلال السنوات الثلاث التي اعقبت احتلال العراق لم تتحق لهم منذ الف عام، ولا بد من الحفاظ عليها ولن يتم ذلك الا عبر الاقليم الشيعي، فانه يريد استغلال المرحلة الراهنة، حيث الفوضى وفقدان الامن وغياب الدولة والقانون واستمرار الغطاء الامريكي له في السيطرة والحماية لتنفيذ مشروعه الانفصالي، ادراكاً منه ان المستقبل ليس في صالحه، خصوصاً وان بوادر انقسام قد ظهر بشكل واضح في جسم الائتلاف الشيعي الذي يرأسه ازاء الفدرلة والاقلمة اللتين يتطلع اليهما.

وينقل عنه انه ابلغ شيوخ عشائر ووجهاء اجتمع بهم في مدينة العمارة الشهر الماضي، خلال جولة تبشيرية لمشروعه الاقليمي في محافظة ميسان الجنوبية، ان (التكفيريين والصداميين) ويقصد طبعا، السنة العرب والبعثيين، سينقضون علينا نحن الشيعة ـ هكذا قال ـ إذا انسحبت القوات الامريكية من العراق، وعلينا ان نثبت اقليمنا دستوريا وعملياً منذ الان، مع تعهد الجارة العزيزة ايران لحماية الاقليم عند انسحاب الامريكان بعد خمس او عشر سنوات، حسب تقديره. وعندما سأله احد الحاضرين ولكن يا سيد سنخسر بغداد إذا تأسس اقليمنا الشيعي، وبغداد تعني العراق! رد عليه عبدالعزيز ساخراً.. ومتى كانت بغداد تعنينا نحن الشيعة منذ انشائها حتى اليوم؟

وواضح من كلام رئيس الائتلاف الشيعي واستخفافه ببغداد، ان مشروع فدرلة بغداد العاصمة الذي يلوح به في بعض احاديثه الصحافية هو مناورة سياسية يرمي من خلالها اشعار الاطراف الاخرى، السنية العربية تحديداً، بانه مستعد للتنازل عن بغداد مقابل الاعتراف باقليمه الشيعي، ولوحظ ان كتباً ونشرات ومؤلفات بورق صقيل وطباعة انيقة بدأت منذ عامين تغزو المكتبات والمساجد والحسينيات في النجف وكربلاء والناصرية والعمارة والبصرة والكاظمية وضاحيتي الثورة والشعلة في بغداد، لكتاب ومؤلفين مغمورين ولا يستبعد ان تكون اسماؤهم مزيفة او حركية، تهاجم بغداد وتاريخها وخلفاءها وعهودها وسكانها، ومن هذه الكتب كراس يحمل عنوان ملائي (بغداد الزوراء ..على الشيعة بلاء) تتصدره خطبه مزعومة ومنسوبة للامام علي بن ابي طالب فيها تحذير لـ(شيعة علي) من الاقامة والعيش فيها مطلعها: (الزوراء.. وما أدراكم ما الزوراء، أرض ذات أثل، يكثر فيها السكان ويكون فيها مخادم وخزان، يتخذها ولد العباس موطناً ولزخرفهم مسكناً، تكون لهم دار لهو ولعب، ويكون بها الائمة الفجرة والامراء الفسقة والوزراء الخونة، يخدمهم أبناء فارس والروم، لا يأتمرون بمعروف، ولا ينهون عن منكر، والويل الويل لاهل الزوراء من سطوات الترك، وهم قوم صغار الحدق، وجوههم كالمجان المطوقة، لباسهم الحديد، جرد مرد، يقدمهم ملك يأتي من حيث بدا ملكهم ـ يعني ملك العباسيين ـ جهوري الصوت، قوي الصولة، عالي الهمة، لا يمر بمدينة الا فتحها، ولا ترفع عليه راية الا نكسها، الويل الويل لمن ناواه فلا يزال كذلك حتى يظفر).

وسواء صحت هذه الخطبة او انها نسبت الى الامام علي ضمن خطب واحاديث كثيرة تفتقر الى الاسانيد وصحة الرواية والنقل، الا ان استخدامها والمدلولات التي تحملها والتوقعات التي تتضمنها عن الترك الذين يزحفون الى بغداد ويحتلونها والمقصود بهم المغول والتتار بقيادة هولاكو، في هذا الوقت بالذات يعني التحريض على بغداد ولعنها واستصغارها، واعتبارها عدوة للشيعة، علماً بان التراث الشيعي مليء بحكايات واساطير تنال من بغداد، المدينة والحاضرة، وتشيد بهولاكو المحتل لها، ومنها ما يقوله فقيه الشيعة في اواخر العصر العباسي ابن طاووس في كتابه (إقبال الاعمال) في تبني الخطبة الزورائية وتوظيفها طائفياً (انه في يوم ثامن عشر من محرم وكان يوم اثنين سنة ست وخمسين وستمئة فتح ملك الارض زيدت رحمته بغداد ـ يقصد هولاكو ـ وظهر في ذلك تصديق الاخبار النبوية).

وتنتشر كتب كثيرة واضح انها طبعت في ايران تنتقص من بغداد وتصفها بمدينة الدماء والبلاء وتمس شرف وسيرة خلفائها وحكامها، وتشتم مؤسسها الخليفة ابو جعفر المنصور وتصف ابرز خلفائها هارون الرشيد بانكر التسميات، اضافة الى ايراد قصص خرافية عن الخلفاء الآخرين، ولعل اغرب ما فيها انها تعظم الخائن ابن العلقمي وتضفي عليه صفات الامانة والصدق والشجاعة وتبرر فعلته في العمالة لهولاكو بانها خدمة للامة، وتطلق عليه القاب البطولة والسخاء والكرم، وتسب المؤرخين والرواة الذين كشفوا فضائحه الخيانية.

وبالتأكيد فان هذه الحملة التي تستهدف الاساءة الى بغداد، منظمة وذات ابعاد تعبوية طائفية الهدف منها التقليل من اهمية هذه المدينة المجيدة في تأريخها وحضارتها وعروبتها ومركزها الاسلامي، وهذا وحده يؤكد ان محاولات تقزيمها مدروسة ومخطط لها من جهات عدة تتقدمها بالطبع الاطراف الشيعية ذات الولاءات الصفوية والاجندة الفارسية، اضافة الى الاحزاب الكردية التي جاهر أحد قادتها ـ مسعود بارزاني ـ انه يكره بغداد حد الموت.

ان الهجمات التي تقوم بها ميليشيات شيعية طائفية وافدة وغريبة عن بغداد، على احيائها في جانب الكرخ والاعظمية والفضل والعزة والوزيرية والعيواضية والصرافية والمهدية وباب الشيخ في الرصافة، وهي أحياء تاريخية تسكنها منذ القدم فئات شعبية سنية، تندرج ضمن مشروع العلقمية الجديدة في تخريب بغداد وخطف وقتل سكانها الاصليين الذين يطلق عليهم (البغادة) تحببا ودلالا لأهل بغداد، وحسنا فعل مطربنا العزيز وفناننا الرائع كاظم الساهر عندما غنى أغنيته الجميلة مؤخرا (يتبغدد علينا واحنه من بغداد) بعد ان صارت هذه المدينة الزاهرة الصابرة الحنونة أسيرة محتلة، قتل الأمريكان خيرة رجالها وأجمل شبابها وأحلى صباياها، وخربوا شوارعها وميادينها وساحاتها وحدائقها، ويبسوا ورودها ورياحينها، وسرقوا آثارها وتحفها التي ترمز الى عصورها الزاهرة بمعاونة طابور من فاقدي الولاء للوطن، من اللصوص والادلاء الخونة، وأولئك الذين (تسمع بهم.. خير من ان تراهم) ولا نكشف سراً اذا قلنا ان عمليات نهب الآثار من المتاحف العراقية عشية احتلال بغداد كانت مقدمات لتدمير بغداد ومحاولة لالغاء هويتها الحضارية والثقافية والابداعية، خاصة وان السراق عرفوا باسمائهم وعناوينهم وآخر فعالهم الاجرامية انهم هددوا مدير عام الاثار العراقية وهو رجل اكاديمي واستاذ جليل، وأجبروه على مغادرة بغداد والهروب الى سورية مع اسرته حيث يقيم فيها منذ اربعة شهور في انتظار مستقبل مجهول.

وعندما يهدد مدربون ولاعبون رياضيون لامعون، ويشرد مطربون بارزون، ويطارد فنانون مرموقون، وتهدر دماء علماء وخبراء واساتذة اجلاء، ويقتل محامون واطباء ومهندسون متميزون، من قبل عصابات يقودها ملالي ونشالون ومنحرفون خلقا وأخلاقا، فان هذه الاعمال تشكل جزءا من حملة تدمير بغداد وتصفية رموزها وطمس تاريخها وتحطيم بناها وسمعتها، وتحويلها الى مدينة تسودها الجريمة والتخلف والظلامية والسواد واللطم والبكائيات، حتى مشرحة بغداد التي تستقبل يومياً المئات من الجثث الآدمية المنخورة بـ(الدريل) وزخات الرصاص، يتولى حراسها وهم من الميليشيات الشيعية الطائفية بيع الجثث الى ذويها والمطالبين بدفنها بأسعار خيالية.

إنهم لا يكتفون بكراهية بغداد، بل يحقدون على أهلها الأصلاء ومحبيها الأوفياء، وكل من يرتبط بها إنتماء وولاء، والهدف لا يخفى على العراقيين المخلصين والشرفاء.. والهجمة مستمرة على بغداد، تتواصل كل يوم وساعة من عصابات الغدر والغرباء..

والله يستر بغداد ويحميها من البوشين الاوغاد والعملاء والعجم والمنغولين والفدراليين.

* كاتب سياسي عراقي يقيم في لندن

انتقام الإعلام من بلير

د. عبدالوهاب الافندي

(1)

لم يتخل رئيس الوزراء البريطاني توني بلير عن هوسه المعروف بتطويع الإعلام حتى وهو يهم بتوديع قمة السياسة البريطانية، حيث حاول أن يحرم الإعلام البريطاني من الخوض في قضية خلافته عبر آليات متعددة. ومن أبرز هذه الآليات فرض الصمت الإجماعي على كل قادة الحزب تجاه المسألة وعدم الإجابة على أي سؤال إعلامي حولها. والغرض من هذا أن يفرض بلير على الإعلام أجندته وأجندة حزبه، بدلاً من الانصياع إلى أجندة الإعلام الباحث عن الإثارة وأخبار الإنشقاقات وأسرار معركة الخلافة.

(2)

مثل هذه المناورة كشفت أن بلير رغم حذقه في إدارة معاركه الإعلامية، وكثرة مستشاريه ذوي الخبرة في هذا الشأن، مايزال لا يفهم الإعلام حقاً. ذلك أن الآلة الإعلامية الحديثة لا يمكن الالتفاف عليها بمثل هذه السهولة، لأنها تتمتع بقوة دفع كاسحة تتمثل في التقنيات والمواهب والأعداد الضخمة من الكوادر. ومن يتخذ مثل هذه الآلة عدواً ويسعى إلى تحجيمها فإنه يكون هو الخاسر، لأن الإعلام يبحث عن الإثارة وهو واجدها لا محالة.

(3)

وبالفعل وجد الإعلام صيده الثمين في أول أيام المؤتمر حين ورد تقرير بأن زوجة رئيس الوزراء السيدة شيري بلير اتهمت خصمه براون بالكذب حين كان يمتدح بلير في خطابه، فطغى ذلك الخبر على كل أخبار المؤتمر الأخرى. ولم يكن هذا هو الصيد الثمين الوحيد، حيث وجد الإعلام ضالته كذلك في الهزيمة العلنية في المؤتمر لسياسة بلير في إشراك القطاع الخاص في توفير الخدمات الصحية، وقبل ذلك تأسف وزير داخليته على «غباء» بلير بسبب كشفه المسبق لعزمه الاستقالة، وأخيراً في إعلان نائب رئيس الوزراء المتأخر عن إعلانه دعمه لترشيح وزير المالية غوردون براون لخلافة بلير، وهو ما رفض بلير أن يفعله ومنع بقية وزرائه من فعله. وقد تحولت كل المقابلات الإعلامية مع قادة الحزب بدءاً ببلير نفسه إلى ما يشبه مباريات الشطرنج من أجل إجباره على التفوه بتصريح حول مسألة القيادة.

(4)

بلير كما هو معروف بنى مجده السياسي عبر التعامل الذكي مع الإعلام. وقد بنى تحالفاً مع روبرت ميردوخ صاحب شبكات التلفزة العالمية (سكاي، فوكس نيوز) ومالك صحيفتي التايمز والصن، ودعم ذلك بتقريب مستشارين من «حواة الإعلام» مثل وزير الصناعة السابق بيتر ماندليسون ومستشاره المقرب الصحافي السابق أليستير كامبيل الذي كانت بعض البرامج الكوميدية تصوره الحاكم الفعلي لبريطانيا. واعتمدت سياسته على فرض الانضباط في التصريحات الإعلامية وحشد خبراء الإعلام في الوزارات والحزب حتى ان عددهم بلغ العشرات في الوزارة الواحدة.

(5)

حققت هذه السياسة نجاحاً لا بأس به، حيث تعتبر مسؤولة جزئياً عن فوزه في ثلاث انتخابات عامة متتالية، وإن كان السبب الأكبر في هذا الفوز هو ضعف المعارضة. إلا أن الإعلام لم يقف مكتوف اليدين، حيث أطاح بماندليسون أقرب مستشاريه من الوزارة مرتين في فضيحتين مختلفتين، ثم ألحقه بكامبيل الذي فقد منصبه على خلفية فضائح تتعلق بملف العراق.

(6)

العراق كان الهوس الآخر لبلير، وقد ساهم مع ما وصف بأنه خضوع بلير التام لإملاءات واشنطن في انهيار شعبية بلير وسط حزبه وشعبه. وإذا كان بعض أنصاره يرون أنه تسرع في إعلان عزمه على الاستقالة، فهناك دلائل تشير إلى أنه ما كان ليفوز في الانتخابات لو لم يعلن ذلك. وقد كان هذا من تكتيكات الهروب إلى الأمام التي ظل يتبعها بلير، مثلما فعل هذا الشهر حين أعلن أنه سيستقيل خلال عام. ولو لم يفعل لربما كان أجبر على الاستقالة فوراً.

(7)

لعل معضلة بلير الأكبر هي أنه ظل يواجه العداء من داخل حزبه. ذلك أن سياسته في الهرولة وراء المحافظين الجدد في واشنطن ربما كانت تسبب مشاكل أقل لزعيم حزب يميني أو حتى حزب وسط. أما لزعيم حزب يساري له تقاليد عريقة فإنها مقتل. بلير عبر في عدد من خطاباته الأخيرة عن توجهات «انتحارية» حين قال إنه لن يبالي بفقدان الشعبية وعدم التفهم لموقفه حول الإرهاب وحرب العراق والوقوف كتفاً بكتف مع جورج بوش. وإذا كان يعتقد هذا حقاً فإنه قد حصل على «الشهادة» التي كان يطلب. ولعل هذ تكون أكبر مفارقة، لأن التهمة الأبرز في حق بلير ظلت تحديداً استعداده للتضحية بالمبادئ من أجل كسب الشعبية، وهو ما افتخر به في خطابه الأخير لحزبه هذا الأسبوع حين قال إنه يحب كل تقاليد حزب العمال ما عدا دأبه على الخسارة أمام خصومه.

(8)

تجربة بلير أثبتت مقولة المسيح عليه السلام عن أن من يعيش بالسيف (أو بالإعلام) يموت به. فالإعلام الحر فرس جموح لا ينقل راكبه حيث يريد. نفس المصير واجهته بعض الدول العربية التي أنفقت المليارات على تطويع وشراء الإعلام وسد الفضاء بالقنوات المأجورة، ولكنها تواجه من الكراهية وانعدام الشعبية ما لا تواجهه الدول الفقيرة التي لا تملك درهماً ولا ديناراً تنفقه في شراء الذمم الصحافية.

القدس العربي
يومية سياسية مستقلة
تطبع في لندن ونيويورك وفرانكفورت وتوزع في جميع انحاء العالم
الاشتراكات:
الاشتراك السنوي 450 جنيها استرلينيا في عموم بريطانيا و 750 دولارا امريكيا للوطن العربي وخارج بريطانيا بما في ذلك اجور البريد.

الناشر:
مؤسسة القدس العربي للنشر والاعلان

رئيس التحرير:
عبد الباري عطوان

المقر الرئيسي (لندن): 164/166 كنج ستريت، همرسميث، لندن دبليو 6 او كيو يو
هاتف: 8008 741 ـ 0208 (6 خطوط) ـ
فاكس: 8902 741 ـ 0208 أو 7637 748 ـ 0208
مكتب القاهرة: 43 أ شارع قصر النيل ـ الدور الاول ـ شقة رقم (2). هاتف/فاكس: 3901523(202)
مكتب المغرب: 80 شارع فال ولد عمير شقة 7 الطابق الرابع ـ الرباط. هاتف/ فاكس: 770594(37 212)
مكتب عمان: شارع الصحافة مجمع البداد التجاري الطابق الرابع.
هاتف/فاكس: 5066089 (9626)
مكتب باريس: هاتف ـ فاكس: 57364 420 (331)

Al-Quds Al-Arabi
daily Independent News Paper
Published In London, New York and